الخطاب الشعري الجزائري "مدونة من إلياذة الجزائر" مفدي زكرياء أنموذجا

الدكتـورة: بختة تاحي
جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف - الجزائر

الملخص:

يعدّ الخطاب من الفنون الأدبية، وكذلك من الممارسات الفنية، يحتوي من جهة أبعادا اجتماعية ونفسية، ومن جهة أخرى، في صلب هذه الفنون نفسها،.... وهذا يطرح من جانب آخر مشاكل ارتباط عويصة بهذه الفنون الأخرى التي تهتم بالخطاب، ومسألة الحدود أو غيابها هي مصدر نقاش متواصل: كالبلاغة، أو نظرية الحجاج، اللسانيات الاجتماعية، اللسانيات النصية، تحليل المحادثات الأسلوبية،...إلخ، فقد ارتبط بجل هذه العلوم، وكذلك بالشعر.

ولقد اخترنا في بحثنا هذا الحديث عن الخطاب الشعري بصفة عامة والخطاب الشعري الجزائري بصفة خاصة، وتبيان ذلك من خلال مدوّنة من إلياذة الجزائر للشاعر والأديب " مفدي زكرياء" في مقطع بعنوان: جزائر يا مطلع المعجزات.

الكلمات المفتاحية: الخطاب- الفنون الأدبية- الممارسات- الخطاب الشعري- إلياذة الجزائر.

تعد الخطابة فنا قوليا نثريا عرف منذ العصر الجاهلي، وازدهر مع بزوغ فجر الاسلام فقد شهدت عصور الأدب العربي حضورا لفن الخطابة ، جعلها في مقدمة الفنون النثرية وكان لعصور الأدب العربي القديم حظ وافر من هذا الحضور والاهتمام ، فالعصر الراشدي الممتد من السنة الحادية عشرة للهجرة إلى السنة الأربعين شهد خطابة الخلفاء الراشدين الأربعة (أبو بكر وعمر ، وعثمان، وعلي) رضي الله عنهم وغيرهم من الخطباء في العصر الاسلامي والأموي ولقد بلغت الخطابة أوج مجدها في عهد الفاروق – رضي الله عنه- وتمثلت في خطب الجمع، وفي المناسبات التي تستوجب ذلك فقد كان عمر ذا ثقافة أدبية نثرية ودينية عالية ، إذ مزج خطبه بالقرآن والحديث الشريف والحكم التي تدعم موضوع خطبته وتقويه، إذ كانت الخطابة تعد وسيلة لتوضيح سياسات الخلفاء في العصر الإسلامي لكونها سجلا تاريخيا يكشف واقعا سياسيا أو عسكريا أو اجتماعيا[01].

وقد وردت بعض التعاريف في الموضوع ، فالخطاب مرادف للكلام : وهذا ما ورد عند " دي سوسير" في ثنائيته وبالتحديد ضمن ثنائية (اللغة والكلام) – الخطاب وحدة أكبر من الجملة[02]، وهي بذلك تساوي النص.

وهناك من الدارسين من حاول إيجاد الجذور الأولى لتحليل الخطاب ، ومن هؤلاء نجد "شارودو" و "منغونو" حيث جاء على لسانهما : مصطلح تحليل الخطاب تعود جذوره إلى عنوان مقال ألفه "زليغ هاريس" سنة 1952م[03].

فلتحليل الخطاب معايير محددة وكذلك تحديدات متنوعة ، ويوجد تحديد واسع جدا :هو تحليل استعمال اللغة (brown et yul 1983) كما هناك تعريف آخر :{ دراسة الاستعمال الفعلي للغة من قبل ناطقين حقيقيين في أوضاع حقيقية } (von dijk) في البلدان الأنجلوسكسونية خاصة ، العديد من الناس ينظرون إن قليلا أو كثيرا إلى تحليل الخطاب وتحليل الحديث وكأنهما شيء واحد ، نظرا لكونهم يعدون الخطاب نشاطا تفاعليا أساسا، غير أنه مع هذه التحديدات الغامضة جدا ، يصعب التمييز بين تحليل الخطاب و التخصصات الأخرى التي تدرس الخطاب، لذا نرى أنه من المستحسن اعتبار تحليل الخطاب، التخصص الذي يدل على التحليل اللغوي للنص في ذاته أو على التحليل السوسيولوجي أو النفساني لمحتواه، ويسعى إلى مفصلة (articuler) تلفظه مع موقع اجتماعي بعينه، وهكذا يجد تحليل الخطاب نفسه حيال أنواع الخطابات المشتغلة في قطاعات الفضاء الاجتماعي[4]. (المقهى، المدرسة، المحل التجاري .....) أو في الحقول الخطابية (السياسية ، والعلمية.....).

ولقد تبنى شعراء الحداثة في العالم العربي طرقا جديدة في تشكيل أعمالهم رغبة منهم في إيجاد خطاب شعري يتوازى مع وعي جمالي وفكري جديدين بعيدا عن النص المفرد أو البسيط أو أحادي البنية فتبنوا " الكتلة النصية" القائمة على التشظي والتعدد السياقي خصوصا في مستواه البصري، فتعددت صورة الأعمال الشعرية في تشكيلها وإخراجها الكتابي والطباعي ، فتبنت الدراسة ثلاثة أعمال يمثل كل واحد منها اتجاها ما، فاختارت ديوان (الكتاب) ل" أدونيس" بوصفه النموذج الأول في الشعر العربي المعاصر الذي تبنى ما يسمى

" بالنص التشعبي" أو الكتلة النصية التراكمية ، وفيه يتجلى الالتفات البصري عبر جدل النص والنص المرافق من جهة والنص والمتن من جهة أخرى ، والعمل الثاني – الذي تبنته الدراسة- ديوان (إشراقات) لـ " رفعت سلام" وهو ينهض في بنيته البصرية على جدل[5]، والهامش عبر علاقة امتدادية وتقاطعية في أن تتجلى من خلال قدرة الشاعر على استخدام إمكانات الخط وسمكه أما العمل الثالث فهو ديوان (سيرة الماء) لـ" علاء عبد الهادي" الذي يعد نموذجا فريدا ومعقدا في بنيته البصرية[6]. حيث استخدم آليات بصرية لم تعهدها القصيدة من قبل .

وقد اخترنا نحن في هذا المقال نموذجا من مدونة لـ " مفدي زكرياء" وهي إلياذة الجزائر لهذ التحليل الخطابي، فإلياذة مفدي زكرياء هي محاولة لإعادة كتابة تاريخ الجزائر ، والتركيز على أهم المحطات التاريخية قصد إجلاء أهم دلالاتها ومن هنا فإن أهم بطل فيها ليس إلاها وثنيا أو بطلا خرافيا أو أسطوريا جاء ليلخصها من كل محنة وجدت فيها ولكنها عبقرية الشعب الجزائري ودأبه على وضع تاريخه بنفسه.

أما زمن إلياذة الجزائر فإنه يمتد من فجر التاريخ البشري إلى نهاية سبعينات هذا القرن وفضائها أيضا الرقعة الجغرافية (الجزائر التي شهدت هذه الأحداث).

ولقد قيل الكثير حول الإلياذة واتفق الجميع حول كونها ملحمة شعرية تروي مآثر الجزائر وتاريخها النضالي والبطولي وتسجل أمجادها وتصف طبيعتها وأروع ثيابها بأسلوب يتميز بالخيال الواسع والموسيقى التعبيرية العذبة المشحونة بشُعل نورانية وبالفعل فالإلياذة سجل لكل المقاومات التي عشنها وسجل لحاضرنا ومستقبلنا في مساعينا لاستعادة شخصيتنا وحصانتها لبناء مجد جديد وسجل للتغني بجمال الطبيعة بجمال الجزائر.

تحليل مقطع من الالياذة:

جزائر يا مطلع المعجزات

جزائر يا مطلع المعجزات ويا حجة الله في الكائنات

ويا بسمة الرب في أرضه ويا وجهه الضاحك القسمات

ويا لوحة في سجل الخلود تموج بها الصور الحالمات

ويا قصة بث فيها الوجود معاني السمو بروع الحياة

ويا صفحة خط فيها البقا بنار ونور جهاد الأباة

ويا للبطولات تغزو الدنا وتلهمها القيم الخالدات

وأسطورة رددتها القرون فهاجت بأعماقنا الذكريات

ويا تربة تاه فيها الجلال فتاهت بها القمم الشامخات

وألقى التهاية فيها الجمال فهمنا بأسرارها الفاتنات

وأهوى على قدميها الزمان فأهوى على قدميها الطغاة

يكمن في هذه القصيدة التمثيل لتراكم معنى البطولة بمجموعة من الدوال المتجاورة في أصواتها المترادفة في مدلولاتها .

في مقولة السمو والرفعة :

تاه فيها الجلال- يجل- عرش الجلال- تقدس- واديك – تحفظ ميزاب- لوح الجلال- سمو المعاني- بروع الحياة- الصفاء- السلام- السماح – الطماح- الهنا – السمو رمز لإجلالنا.

في مقولة الاعتزاز والافتخار:

فخر الجزائر- شرفتي باسم الجزائر – جنسيتي- كرمت باسم- المفاخر قومي- إلهام حسي- تبارك شعب- فكنا كراما- وتزخر بالعلم ارجاؤنا.

في مقولة التحدي والمواجهة:

صنعت – عبدت – كنا الكواسر- كنا المنايا- نأنف أن نهزم- فطوق تاريخنا – فكان الرصاص القصاص الضميا- وشمر- يرفض – ينفض- فأقسم- وأعلن- وفجر- قمنا – تحدي- ثرنا – نقاوم- وتأبى – ويأبى.

من خلال هذه المعاني البطولية يتبين أن الشخصية " مفدي زكرياء" يسخر من العدو رغم قوته المادية البشرية، والاحاطة به مما يتشاكل ذلك دلاليا مع معاني القوة السالفة أي الحرب النفسية ضد العدو.

حيث كان الاستهلال عام لكل الجزائر رمز " الوطن" وهو لم يخص منطقة دون غيرها بل تحدث عنها كتلة واحدة تلهب هذا الشوق الجارف لما يربط الانسان بالأرض ففي الصورة الشعرية تتجمع عناصر متباعدة في المكان والزمان غاية التباعد ولكن سرعان ما تأتلف في اطار شعوري واحد.

فهذه الإلياذة عبارة عن خطاب شعري نثري إلى الشعب الجزائري وثورة ضد الاستعمار الفرنسي، ذلك العدو اللدود، فأورد بعض المفردات النضالية والبطولية والجلدة في شعره، وهي عبارة عن تحفيزات وتوجيهات للشعب الجزائري بحد ذاته لا غير.

الهوامش

1. عبد الله علي جابر المري : الخطابة عند الفاروق – دراسة أسلوبية- رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط، 2012م، ص 12.
2. رشيد عزي : إشكالية المصطلح في المؤلفات العربية – تحليل الخطاب نموذجا- دراسة تحليلية نقدية ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، المركز الجامعي بالبويرة، 2009م، ص 44.
3. نفسه، ص 51.
4. دومنيك مانغونو: تر: محمد يحياتن، المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب ، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2008م، ص 09.
5. عبد الناصر هلال: الالتفات البصري من النص إلى الخطاب (قراءة في تشكيل القصيدة الجديدة) ، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2009م، ص 206.
6. نفسه، ص 207.

المصادر والمراجع:

1) عبد الله علي جابر المري : الخطابة عند الفاروق – دراسة أسلوبية- رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط، 2012م، ص 12.
2) – رشيد عزي : إشكالية المصطلح في المؤلفات العربية – تحليل الخطاب نموذجا- دراسة تحليلية نقدية ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، المركز الجامعي بالبويرة، 2009م، ص 44.
3) – دومنيك مانغونو: تر: محمد يحياتن، المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب ، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2008م، ص 09.
4) – عبد الناصر هلال: الالتفات البصري من النص إلى الخطاب (قراءة في تشكيل القصيدة الجديدة) ، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2009م، ص 206.